قرية كاف الأثرية في ضوء كتابات الرحالة الغربيين
«دراسة أثرية حضارية حتى عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م»

د. حصة بنت عبيد بن صويان الشمري، استاذ مساعد،
جامعة الأميرة نورة، كلية الآداب، قسم التاريخ

مقدمة:

حظيت الجزيرة العربية باهتمام عدد كبيرمن الرحالة الغربيين الذين زاروا مناطقها، وسجلوا معلومات قيمة ومفيدة عن تلك المناطق، وفدوا إليها خلال الفترة ما بين منتصف القرن التاسع عشر، وأوائل النصف الأول من القرن العشرين الميلاديين، مدفوعين بدوافع مختلفة منها: السياسية، والعلمية، وجرياً وراء المعرفة، وحب الاستطلاع والكشف، ومنها ما هو خدمة لمصالح دولهم، ومنها ما كان يهدف إلى جمع المعلومات التي تطلبها الجمعيات والمؤسسات الجغرافية الأوروبية، وهناك عدد من الرحالة الأوروبيين الذين يجرون وراء الشهرة عن طريق المغامرة التي هي في الغالب وليدة الطموح والتخطيط للمستقبل(١).

وكانت الجوف التي تقع فيها (كاف) منطقة الدراسة، إحدى أهم مناطق شمال شبه الجزيرة العربية التي اتجهت إليها أنظار أولئك الرحالة الغربيين، وخصّوها بعناية كبيرة في كتاباتهم، فتوفرت عنها نتيجة ذلك معلومات متنوعة، مما شجع الباحثة على اختيارها للدراسة.

أهمية كتابات الرحالة بالنسبة للدراسات الأثرية:

إن لكتابات الرحالة قيمة كبيرة للدراسات الأثرية، ولا سيما الكتابات الوصفية التي دونوها من خلال ما شاهدوه في جولاتهم في المدن والقرى والطرق والأحياء، والأسواق وسجلواما فيها من أبنية للسكنى والمساجد، إلى غير ذلك من عمائر كوصفهم

(١) عطا الله، سمير، **قافلة الحبر الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج**، دار الساقي، بيروت، (١٩٩٤م)، ص ص ٨-١٢.

للقصور والقلاع والحصون والسدود وقنوات الري، ولهذا يمكن اعتبار هؤلاء الرحالة بمثابة فريق من الباحثين، توافدوا على قرية كاف في أوقات مختلفة، وسجلوا عنها ما عاينوه في كافة نواحي الحياة الاجتماعية والثقافية والمعمارية، موثقين ما نقلوه من خلال رؤيتهم الشخصية لها ومعايشتهم للعامة في مساجدهم وأسواقهم ودروبهم، ولذا جاءت كتاباتهم عن تلك النواحي غاية في الأهمية والدقة، لكونها ألقت الضوء على كثير من صور الحياة في قرية كاف الإسلامية عبر العصور، كما عكست لنا كتاباتهم صورة حية عن الحياة العمرانية في ذلك الوقت. ولم تقف كتابات الرحالة عند هذا الحد بل تعمق بعضهم في وصف أكثر من ذلك، فكتبوا في رحلاتهم تفاصيل عن زي العامة، كما وصف بعضهم عادة العامة والخاصة في الاستقبال وكرم الضيافة، والبعض الآخر منهم سجل أنواع الصناعة وأنواع ما يؤكل في قرية كاف وما يباع ونوع التعامل التجاري، إلى غير ذلك من معلومات متنوعة وكثيرة.

الإطار الجغرافي والتاريخي لقرية كاف:

كاف قرية من أقدم قرى محافظة القريات، الواقعة في الجزء الشمالي الغربي من المملكة العربية السعودية، وتقع بقرب خط العرض ٢٨ـ٣٠ شمالاً وخط الطول ٣٠ـ ٣٧ شرقاً (شكل ١)، ويوجد بها مبان قديمة عبارة عن بيوت طينية متلاصقة وقنوات مياه وقلعة، ولقد ذكرها الحموي فقال: «كاف حصن حصين بسواحل الشام قرب جبله كان لرجل يقال له ابن عمرون في أيام الأفرنج»[١].

(١) الحموي، ياقوت، **معجم البلدان**، المجلد الرابع بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، (١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م)، ص ٤٣١.

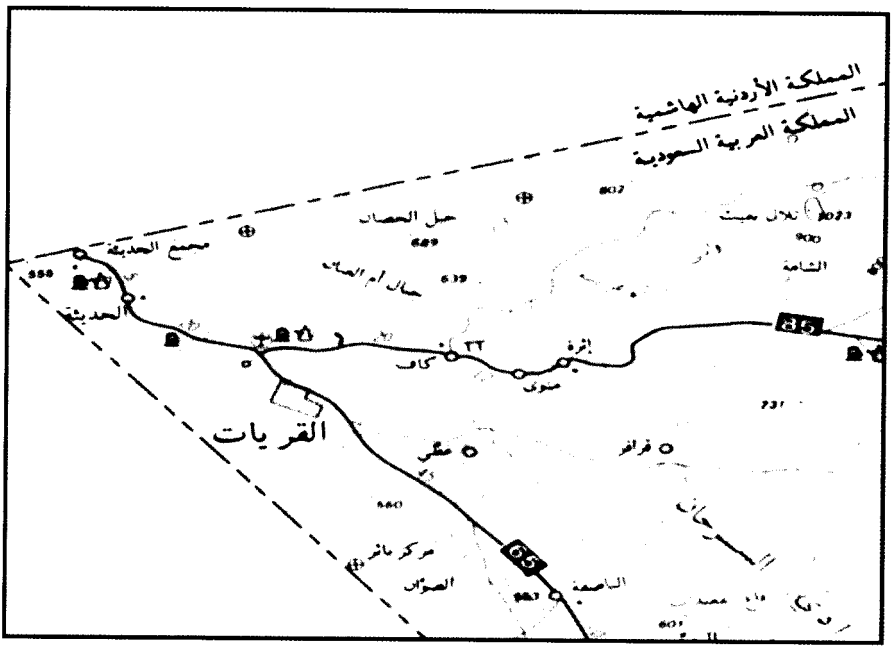

(شكل ١) خريطة توضح موقع كاف
بتصرف نقلاً عن وزارة الدفاع والطيران، إدارة المساحة العسكرية (الرياض، ١٤١٧هـ)

وكانت كاف ضمن وادي السرحان خاضعة لنفوذ أمراء الرولة آل شعلان[١]، بعد ضعف الإمارة الرشيدية، وفي عام ١٣٣٨هـ قام الشيخ نواف الشعلان ببناء مقر لحكمه في قرية كاف بجوار قلعة جبل الصعيدي من الشرق، ولما خضع وادي السرحان للملك عبد العزيز رحمه الله في عام ١٣٤١هـ كان يتولى إمارة الوادي محسن الشعلان ابن عم النوري، وقد أمر الملك عبد العزيز أميره في الجوف إذ ذاك وهو عبد الله بن عقيل بتسلم إدارة وادي السرحان من محسن بن شعلان، فبعث أحد تابعيه وهو علي بن بطاح وقام بتلك المهمة، وأصبح أول أمير في كاف قاعدة وادي السرحان آنذاك.

(١) الشعلان أسرة عريقة اشتهرت في شمال الجزيرة العربية في الشجاعة والإقدام والسطوة والأنفة والنخوة والكرم، وكان لها نفوذ كبير، وهم أمراء قبيلة الرولة، وقد أنجبت هذه الأسرة العديد من الأمراء والشيوخ والفرسان الذين كان لهم دور بارز وكبير في تسيير دفة الحياة السياسية في شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام، ومن هؤلاء الشيوخ البارزين: الفارس والزعيم المعروف النوري بن شعلان الذي لعب دوراً بارزاً في حرب ١٩١٤م.

ثم عين الملك عبد العزيز الأمير عبد الله الحواسي أميراً للوادي، وهو من خيرة الأمراء تقوى وصلاحاً، ومن آثاره في الوادي (عين الحواسي) المنسوبة إليه، وقد تولى فيما بعد إمارة أملج بالحجاز، وعين الملك عبد العزيز مكانه صالح بن عبد الواحد، ثم نقل إلى عمل آخر وعين الملك مكانه الشيخ عبد العزيز بن زيد، وبعد مدة نقل من هذا العمل وحل محله ابن زيد عبد العزيز بن أحمد السديري الذي كان له أكبر الأثر في تنظيم شؤون هذه البلاد، وفي عهده تم نقل مقر الإمارة من قرية كاف إلى مقر القريات الحالي وذلك في عام ١٣٥٧هـ[١].

التعريف بالرحالة الذين سوف يتناولهم البحث :

سنورد فيما يلي نبذة مختصرة عن الرحالة الذين تم اختيارهم في هذا البحث والذين زاروا قرية كاف، من حيث حياتهم ومؤلفاتهم وأهدافهم:

١- الليدي آن بلنت Lady Anne Blunt:

ولدت الليدي آن بلنت في إنجلترا عام ١٨٣٧م، وهي حفيدة الشاعر الإنجليزي اللورد بيرون، وقد تزوجت ولفرد بلنت، وجاء تمع زوجها لشراء الجياد العربية الأصيلة فزارا شمال الجزيرة العربية عام ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م، وارتحل ولفرد وزوجته بلنت من دمشق متوجهين إلى حائل، وسلكا طريق دمشق، إلى الكاف في وادي السرحان، ثم إلى الجوف، ومنها إلى سكاكا، وآبار الشقيق، ثم إلى حائل، وكنتيجة لهذه الزيارة كتبت الليدي آن بلنت كتاباً بعنوان: (a Pilgrimage to Nejd, London, 1968)[٢]، وقد ترجم أجزاءً من هذا الكتاب إلى اللغة العربية محمد أنعم غالب، ونشر بعنوان «رحلة إلى بلاد نجد» عام ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٨ م .

---

(١) الجاسر، حمد، **في شمال غرب الجزيرة**، الرياض، دار اليمامة، (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص ٤١ – ٤٢.

(٢) السديري، عبد الرحمن بن أحمد، **الجوف – وادي النفاخ**، المملكة المتحدة، المملكة العربية السعودية، شركة ماكميلان، مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية، (د.ت)، ص ٤١١٢ أسعد عيد الفارسي، **الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ج١، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، (١٤٢١هـ)، ص ٦٠٠.

٢- يوليوس أويتنج Julius Euting :

وهو ألماني ولد عام ١٨٣٩م في مدينة شتوتجارت في ألمانيا. قام برحلة إلى الجزيرة العربية عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م مع رفيقه الفرنسي تشارلز هوبير، وكان هدف أويتنج من هذه الرحلة التعرف إلى النقوش الآرامية والنبطية والسبيئية واللحيانية التي حصل عليها ونشرها في مؤلفات عديدة، وقد ألف كتاب عن رحلاته Julius Euting. Tagbuch einer Reise in Inner Arabien Leiden . 2 Vols 1869 – 1914 وفي الجزء الأول من هذا الكتاب تناولت في ثلاثة فصول منطقة وادي السرحان والجوف، وكان لقرية كاف نصيب منها، وتمت ترجمة هذا الكتاب(١).

٣- تشالرلز هوبير Chales Huber:

وهو رحالة فرنسي من الألزاس(٢)، ابتعث من قبل الجمعية الجغرافية الفرنسية لاستكشاف جزيرة العرب، مرتين: الأولى استمرت ٤ سنوات من ١٢٩٥- ١٢٩٩هـ/ ١٨٧٨م–١٨٨٢م، حيث وصل إلى حائل، والثانية من عام ١٣٠٠- ١٣٠١هـ / ١٨٨٣– ١٨٨٤م، وشاءت الأحوال أن يبقى في الجزيرة إلى الأبد، إذ قتل في العلا في ٢٩ يوليو١٨٨٤ونقل جثمانه إلى جدة ودفن فيها، وفي رحلته الثانية جاء مع يوليوس أويتنج، وزار خلالها كاف. ونشر هوبير ما دونه من معلومات تحت عنوان: رحلات في الجزيرة العربية (Journal d'un voyage en Arabie . 1883 – 1884). واعتمد تشارلز هوبير على ذكر المسافات والقياسات بالدقائق والساعات. وبالإضافة إلى ذلك فتوجد به بعض الملاحظات عن السكان وحياتهم.

---

(١) العقيقي، نجيب، **المستشرقون**، دار المعارف، مصر، (١٩٨٠م) ط٤، ص ٣٤٤.

(٢) الألزاس، مقاطعة تقع في فرنسا قريباً من الحدود الألمانية، بدْول، روبن، **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**، ترجمة عبد الله أدم نصيف، د.ن، الرياض، (١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م)، ص ١٣٧.

وبدأت مراحل طريقه من كاف في وادي السرحان، إلى إثرة، وسكاكا، والطوير، والجوف، ومن الجوف توجه إلى حائل[١].

وقد تم اختيار هؤلاء الرحالة الثلاثة، لاحتواء كتاباتهم على معلومات شاملة ومتنوعة إلى الحد الذي يساعدنا على إعطاء وصف متكامل عن قرية كاف الأثرية، كما أن الليدي آن بلنت كانت أول امرأة تزور القرية، مما أتاح لها الوقوف على مجتمع النساء، أما يوليوس أويتينج، فانه يتميز برسوماته الجيدة التي أثرت كتاباته عن القرية، في حين كان لرفيقه هوبير اهتماماته المختلفة واعتماده على القياس والوصف الدقيق، ولهذا يعدان مكملين لبعضهما البعض.

أسباب اهتمام الرحالة الغربيين بقرية كاف:

لقد جذبت قرية كاف أنظار الرحالة الغربيين ونالت اهتماماتهم لأسباب متعددة، منها ما يلي:

- أنها تمثل باب الخروج من الشام والعبور إلى صحراء النفود الكبير الذي يُشرف على شمالي حائل، وكانت هي نقطة البدء لهؤلاء الرحالة الغربيين الثلاثة ومعظم المستكشفين الغربيين، غير أن هوبير يختلف عن البقية في كونه وصل كاف في ١٧مايو ١٨٧٨م قادما من البصرة.
- موقعها الجغرافي المتميز عند التقاء الطرق، حيث إنها تُعَدُّ محطة للقوافل بين دمشق والمدينة[٢].
- تمتاز قرية كاف بوجود موارد مياه يرتادها البدو الرحل والمسافرون على حدٍّ سواء[٣].

---

(١) برنث، بيتر، **بلاد العرب القاصية**، ترجمة خالد عيسى، دار قتيبة، د.ن، (١٩٩٠م)، ص ص ١٩٦-١٩٨.

(٢) البادي، عوض، **الرحالة الأوربيون في الجزيرة العربية، منطقة الجوف و وادي السرحان ١٨٤٥ ــ ١٩٢٢م**، نصوص مترجمة، الرياض، دار بلاد العرب للنشر، (١٤١٨هـ)، ص ١٥١.

(٣) الجاسر، في شمال غرب الجزيرة، ص ٣٨٤.

- كما أن لقرية كاف أهمية تاريخية وأثرية اكتسبتها جراء ما تضمنته من آثار وكتابات قديمة، جذبت إليها الزوار والرحالة الغربيين.

قرية كاف في كتابات الرحالة الغربيين:

قدم هؤلاء الرحالة عن قرية كاف الكثيرمن المعلومات المهمة، التي تصف جغرافيتها وتؤرخ لأحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتركيباتها السكانية، حاضرة وبادية، وآثارها العمرانية، وسوف نتتبع ذكر قرية كاف من خلال التقسيم الآتي:

أولاً: الوصف العام لقرية كاف في كتابات الرحالة:

كان لزيارة الرحالة المتعاقبة على قرية كاف أعظم الأثر في الكشف عن أوصافها المختلفة، فعندما زارت الرحالة الإنجليزية آن بلنت هذه القرية في سبتمبر سنة ١٨٧٩م/١٢٩٧هـ، وصفت في كتابها (رحلة إلى بلاد نجد) قرية كاف، وأشارت إلى أسوارها وأبراجها ومنازلها وعملت إحصائية لأعدادها، وكذلك عدد أشجار النخيل، وبينت كيفية ريها (لوحة ١) باعتبارها أكثر أنواع الأشجار المنتشرة بالقرية، كما وصفت أشجار الأثل، فقالت «كاف قرية صغيرة لطيفة لها طابعها الخاص، متميزة تماماً عن أي شيء يراه المرء في سورية، وكل شيء نموذج مصغر، الستة عشر بيتاً المربعة الصغيرة، والأبراج الصغيرة ذات المشارف، والأسوار بمشارفها، بارتفاع ٧ أقدام - والسبعون أوالثمانون نخلة في بستان يروى من آبار، وبعض أشجار حسبتها في البداية سرو، ثم اتضح أنها نوع رقيق من الأثل»(١). وبعد ذلك أثنت على جمالها ونظافتها رغم صغر مساحتها، فقالت «ومع أنها محَلٌّ صغير جداً فإن» (كاف) ذات منظر فريد مزهر، فكل شيء هناك أنيق. وفي إصلاح حسن. ولن تجد شرفة واحدة مكسورة. أو بابا خارجاً عن مفصلاته، كما هي الحال بكل تأكيد في سورية»(٢).

---

(١) بلنت، الليدي آن، **رحلة إلى بلاد نجد**، ترجمة محمد أنعم غالب، الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، (١٣٨٩هـ/ ١٩٧٨م)، ص ١٣.

(٢) بلنت، **رحلة إلى بلاد نجد**، ص ١٣.

(لوحة ١) بساتين النخيل في كاف

وفي النص السابق إشارة إلى أنه قد تم إصلاح قرية كاف من الدمار الذي حل بها، حيث ذكر الرحالة جورماني[١] عند زيارته لقرية كاف عام ١٨٦٤م، أنها قد تعرضت للتدمير في القرن ١٥م، وأعيد بناؤها في القرن ١٨م[٢].

وعن تنوع الأشجار وندرة بعضها في بساتين كاف ذكرت بلنت أنها وجدت في إحداها شجرتين من الكروم التي نادراً ما يجدها المرء في سوريا، فقالت «وهناك أيضاً عدد طيب من صغار النخيل غرست بين النخلات الكبيرات. وشجيرات تين حديثة وكروم. وأشياء قل أن تجدها في الشمال»[٣].

(١) جاء كارلو جوارماني Carlo Guarmani الإيطالي إلى وسط الجزيرة العربية و الجوف قبل رحلة الليدي آن بلنت بنحو ١٥ عاماً، و كان ذلك عام ١٢٨٠هـ/١٨٦٤م، مرسلاً من قبل الإمبراطور نابليون الثالث والملك فكتور عمانويل الثاني لشراء الخيول العربية الأصيلة من نجد، بالإضافة إلى الدوافع السياسية الأخرى، وتمكن أخيراً من الوصول إلى كاف، انظر السديري، **الجوف – وادي النفاخ**، ص ص ١٠٨ – ١٠٩.

(٢) البادي، **الرحالة الأوربيون في الجزيرة العربية منطقة الجوف ووادي السرحان**، ص ١٥١.

(٣) بلنت، **رحلة إلى بلاد نجد**، ص ١٣.

ولم يمنع ما لقيته بلنت وزوجها ولفرد في البداية من فزع من سكان قرية كاف، إلا أنها أثنت على سلوكهم، وشبهتم أثناء حمل السلاح بالصليبيين، فقالت: «والناس لطاف المنظر، حسنو السلوك، ولو أنهم في البداية أفزعونا قليلاً بطوافهم والسيوف في أيديهم. وهذه إما يحملونها منكسة على كلا الكتفين، أو يقبضون على غمدها بكلتا اليدين، أشبه كثيراً بما يشاهد المرء في الأشكال المنقوشة على الصخر لشهداء العصور الوسطى، أو في صور المجاهدين الصليبيين».

ثم تمدنا بلنت بمعلومات عن اسم شيخ القرية عند زيارتها لها، وما يتميز به من الكرم وحسن الاستقبال، فتقول «استقبلنا عبد الله القاسم شيخ القرية، الذي إليه حملنا رسالة من حسين بأدب عظيم، ونظفت غرفة في بيته من أجل استعمالنا».

وبعد ذلك تنتقل بلنت إلى وصف طرق التدفئة أثناء البرد، عن طريق إشعال النار، وتبين نوعية أخشاب الوقود المستخدم، كما استهواها طريقة إعداد القهوة في قولها: «احتراق الحطب هنا له لهب جميل. ويعطي أقصى حرارة بأدنى قدر من الدخان، إنه (الروثة) الغضا - نوع من الأثل - ويجلس الناس حول الموقد. بينما يجري صنع القهوة إجراء صامتاً، يستغرق نصف ساعة تقريباً».

ثم تطرقت بلنت لأهم المحاصيل الزراعية، وهو ما تنتجه أشجار النخيل من التمور، وبينت أثرها الكبير في غذاء الناس عندما قالت «وبمجرد وصولنا أحضرت قصعة من التمر من محصول العام الماضي، وهو لزج ومهروس، لكنه طيب»، وبعدها حددت نوعية الأطعمة المعتادة، في قولها «وفي المساء تناولنا عشاء معتاداً مكوناً من البرغل ولحم الدجاج المسلوق».

ثم عادت بلنت من جديد لمدح أهالي كاف، وشيخهم الذي يتميز بالكرم والتواضع لدرجة أنه يقوم بما يشبه عمل دليلهم محمد، فقالت: «إننا مندهشون جداً من الأدب الذي عليه

كل فرد، فعبد الله مضيفنا سألنا، على الأقل عشرين مرة، عن صحتنا قبل أن ننتقل من شيء إلى آخر، ولم يكن من السهل أن نجد ثناء مناسباً للرد، وكل شيء بالطبع بائس وبسيط، ولكن المرء لا يملك إلا أن يحس أنه بين قوم متحضرين. وقد أكثروا من اللجب مع محمد الذي يعاملونه كشيخ، و(تدمر) معروفة بالاسم جيداً، وتعتبر على هذه المسافة مدينة مهمة، ووجود إنسان في مركزه يقوم بعمل شبه خفير- كالذي يقوم به محمد معنا- يعتبر مفاجأة كبيرة، ولهذا وضع موضع استجواب مهذب في المساء فيما يتصل بالباعث وراء رحلته».

وذكرت بلنت بأنها أول من زار قرية كاف من الأوروبيين في زمنها، اعتماداً على ما أكده لها أهالي القرية، فقالت: «لم يشاهَد (الفرنج) قط في (كاف) من قبل، هكذا يقول الناس، وهم لا يفهمون الاحترام الذي يقابل به الأوروبيون في أماكن أخرى، وعلى أية حال فقد شرح لهم محمد أخوّته مع (البيك) واحتج بأن رحلته هي رحلة ترفيه، لا رحلة من أجل الربح، حتى نعامل بنفس القدرمن البشاشة كما لوكنا عرباً بالولادة، وكان عواد الشمري ذا فائدة عظيمة لنا، من حيث إنه معروف جيداً هنا فيقوم بدور التقديم»[1].

ثم تواصل بلنت في الحديث عن تاريخ قرية كاف، وتوضح أنها مستقلة عن سلطان العثمانيين، على الرغم من تكرار هجوم الجنود العثمانيين عليها، وتدميرهم لقلعتها، فتقول أنها مستقلة تماما عن السلطان، ولو أن العساكر الترك نهبوها مرتين، مرة بقيادة إبراهيم باشا، ومرة ثانية منذ بضع سنين، فقط عندما أرسلت حكومة دمشق حملة عسكرية إلى وادي السرحان، وشاهدنا خرائب قلعة قصر الصعيدي، على تل فوق البلدة، هدمها السابقون - جنود إبراهيم باشا- وسمعنا كثيراً من النواح حول أعمال الآخرين»[2].

(١) بلنت، **رحلة إلى بلاد نجد**، ص١٤- ١٦.

(٢) بلنت، **رحلة إلى بلاد نجد**، ص١٦.

وفي النص السابق إشارة إلى المحاولة التي قامت بها الحكومة العثمانية في أواخر القرن ١٩م، من مد نفوذها إلى منطقة الجوف ووادي السرحان، وتحديها لنفوذ ابن الرشيد، وكانت إقامة العثمانيين القصيرة في كاف وجلاؤهم عنها، يعكس تماماً ضعف ارتباط الحكومة بهذه المنطقة(١).

كما ذكرت بلنت أن كاف تابعة لابن رشيد، وأنهم يدفعون له الضرائب مقابل حمايته لهم من جيرانهم، فقالت «إن سكان كاف يعترفون بأنفسهم بأنهم رعايا لابن رشيد، رئيس جبل شمر. وكان بعض قومه هنا منذ أيام قليلة فقط ويأخذون الأتاوة، وهي مبلغ صغير، مجيدي (٤ جنيهات إسترلينية) وهم يدفعونها بابتهاج مقابل حمايته لهم، وهم متحمسون جداً للأمير كما يسمونه، وحقاً ليس هناك من سبب حتى يرغبوا في الانضمام إلى سورية».

وأخيرا ختمت بلنت نصها المطول بالحديث عن أهم الأنشطة التي يمارسها سكان قرية كاف كتجارة الملح، وتربية الحيوانات كالجمال والماعز، فقالت «إن مدينة كاف الصغيرة وجارتها (إثرة) حيث نحن الآن، تجارياً، لهما من الاتصال بالشمال (أي بلاد الشام) أكثر من الجنوب، لأن ثروتهما الأساسية،- كما هي الحال- تنبع من تجارة الملح مع (بصرى)..... ولاحظت بضع جمال وحمير وماعز حول القرية»(٢).

وتتوالى كتابات الرحالة الغربيين في وصف قرية كاف، فيصف أويتنج موقعها وحدودها في قوله أن قرية كاف تقع في منطقة سبخة تسمى النبك والعقيلة، وهي تمتد مسيرة يوم واحد نحو الغرب والجنوب الغربي. وتحدها من الجهات الأخرى سلاسل جبلية ذات أسماء متعددة. ويقال أن وادي الراجل الذي يبدأ من جنوب شرقي جبل الدروز ويطلق عليه بدءاً من قصر الأزرق اسم وادي السرحان يصل إلى هذه المنطقة، ويمتد على مسيرة ثماني ساعات إلى الجنوب الشرقي من قرية إثره، «التي تبعد ١٤ كيلومتراً إلى الشرق من كاف.

---

(١) السديري، **الجوف – وادي النفاخ**، ص ٥٠.

(٢) بلنت، **رحلة إلى بلاد نجد**، ص ١٧.

ثم يمدنا أويتنج بنص يتسم بدقة الملاحظة وعمق الرؤية عن الآثار المتعلقة بقرية كاف (شكل ٢) من منازل وقصور وبوابات وأفنية وآبار، فيقول «ويبلغ عدد بيوت قرية كاف حوالي ثلاثين بيتاً، وهي مقسمة على جزأين لا يرتبط بعضهما ببعض سوى عن طريق بساتين النخيل، أما تعداد سكانها من الرجال فيبلغ على الإجمال تسعين شخصاً، وبالنسبة إلى الجزء الشرقي الأقل أهمية فهو ذو مدخل عريض دون بوابة، كما أن بساتينه وآباره أقل عدداً، أما الجزء الغربي الذي يسكنه الشيخ عبد الله الخميس فإن مجموعة منازله تتسم بالضخامة. وتشتمل على عدة أفنية»[1].

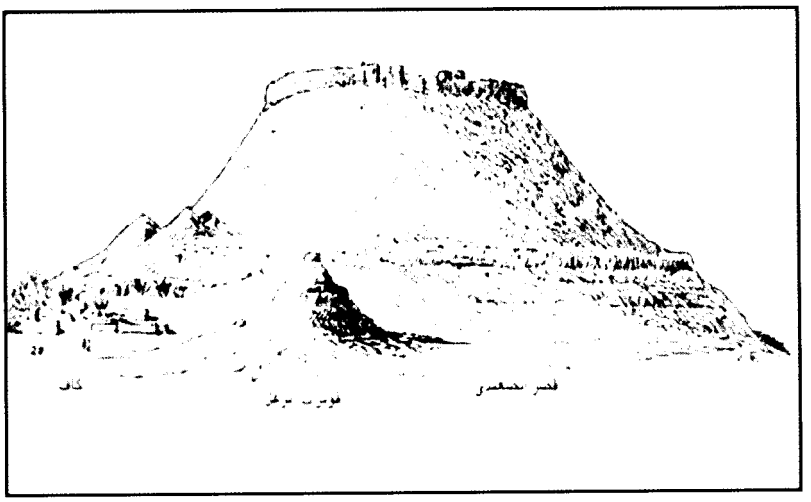

(شكل ٢) قرية كاف

نقلاً عن أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٣٥

ومن النص السابق، نكون قد تعرفنا على عدد السكان في قرية كاف الذي أحصاه أويتينج بـ ٩٠ رجلاً، وأيضا عدد منازل قرية كاف، والتي تضاعفت بعد زيارة بلنت وخلال

(١) أويتنج، يوليوس، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ترجمة: سعيد فايز السعيد، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، (١٤١٩ هـ ١٤١٩ هـ)، ص ٢١.

ست سنوات، فأصبحت حوالي ٣٠ منزلا، كما تعرفنا على أن منازل القرية موزعة في كتلتين تفصل بينهما بساتين النخيل، وحدد لنا هذا النص موقع منزل عبد الله القاسم شيخ القرية، وهو في الجزء الغربي الذي تتسم منازله بالفخامة، بينما الجزء الشرقي تتسم منازله بالبساطة، حتى أن مدخله يفتقد البوابة (لوحة ٢). ولم يكتف أويتنج بهذا الوصف العلمي السليم، الذي قام على أساس المشاهدة، بل زاد على ذلك في تدعيم مشاهداته عن طرق الرسم الذي أجاده بدقه (شكل ٣).

(لوحة ٢) مدخل يؤدي إلى منازل قرية كاف من الجهة الشرقية

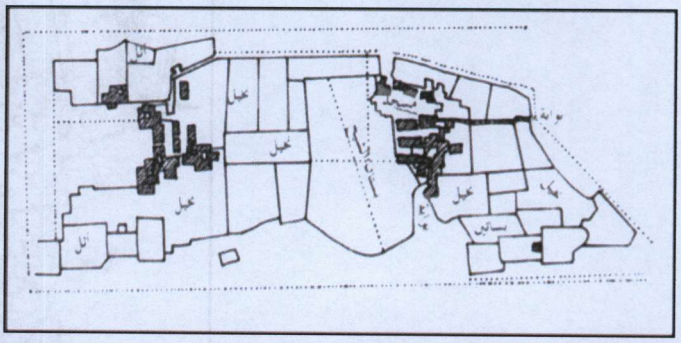

(شكل ٣) مخطط قرية كاف بقلم يوليوس
نقلاً عن أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٣٢

وتطرق أويتنج للزراعة، والتي مثلت دوراً رئيسياً في اقتصاد كاف، وكان لوفرة المياه دوراً في ذلك، وزاد اهتمام السكان بها فانتشرت بساتين النخيل وأشجار الأثل. وتحدث عن ملكية تلك البساتين المسيجة بحوائط خاصة، فقال «عبارة عن ملكية خاصة ولهذا السبب فإن كلاً منها محاط بأسوار خاصة بها».

وأشار أويتنج بعد ذلك إلى نظام الري في البساتين بتقسيم مياه الآبار على البرك وقنوات لتصريف المياه الفائضة، فقال «وحيث إن كل بستان كبير يحتوي على بئر أو أكثر (الشكل ٤) مزود ببرك وقنوات فإنه يمكن ريّ أشجار النخيل كافة دون صعوبة على الأقل بالتبادل فيما بينها، بل إن هناك أيضاً قنوات أخرى لتصريف المياه الفائضة يمكن أن يستفيد منها صغار الملاك، وعندما يكون الوقت مناسباً فإنه يمكن أيضاً زراعة الأراضي الخارجية بالقمح والخضروات».

(شكل ٤) إحدى آبار قرية كاف والأدوات المستخدمة لاستخراج الماء نقلاً عن أويتنج، رحلة داخل الجزيرة العربية، ص ٤٨

ونستخلص من النص السابق أن كل بستان يحتوي على بئر أو أكثر، ويوزع الماء المستخرج منها إلى مجموعة من البرك تخرج منها قنوات حمل المياه إلى أشجار النخيل لريها، وأنه يمكن ري كافة النخيل بسهولة، على الأقل بالتبادل فيما بينها. بل أن هناك قنوات أخرى يمكن أن يستفيد منها صغار الملاك. كما نستخلص منه مدى استفادة السكان من الأراضي الخارجية بالزراعة عند هطول الأمطار وتوفر الأمن والاستقرار.

ثم ذكر أويتنج قرية كاف كمثال لمجتمع تحول سكانها من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار إذ يمكن إن نعدها قرية حضرية استقر وقطن بها البدو، وذلك لكثرة ما بها من نخيل، فقال «ونظراً لأن كاف مقارنة بقاطنيها من البدو تحتوي على ٤٥٠ إلى ٥٠٠ نخلة فيمكن اعتبارها قرية غنية»[١].

وفي النص السابق دلالة على استمرار عناية السكان بزراعة النخيل، مما زاد عددها عن السابق، فأصبحت حوالي ٥٠٠ نخلة، حتى اعتبرت كاف قرية حضرية يستوطن بها البد والرحل.

كما وجدت في النص إشارة إلى العلاقة بين المتحضرين والبدو، وما نتج عنها من اعتماد متبادل أدى في النهاية إلى ترك البدو لحياة التنقل والترحال والاستقرار في القرى وممارسة الزراعة وغيرها من الأنشطة الأخرى.

وبعد ذلك انتقل أويتنج في كتاباته لوصف طريقة استقبال شيخ القرية عبد الله بن الخميس لرجال القافلة، وتقديم واجب الضيافة لهم في غرفة الاستقبال (القهوة) بمنزله، ثم وصف ما شاهده من أثاث تلك الغرفة.

---

(١) أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٢٢.

وعن وصف الملابس والحلي التي تتزين بها نساء قرية كاف، يقول أويتنج « تتكون ملابس النساء من ثوب قطني شديد الزرقة له أكمام طويلة وذيل يتفاوت في طوله ويوضع على الرأس غطاء من القماش نفسه، حيث تتم تغطية الوجه به عند اقتراب الرجال، كذلك كانت النساء يتزَّيَّن بوضع أي أزرار في فتحة الأنف اليمنى[1] لونه أسود أو تركواز أو وردة صغيرة مكونة من عدة أحجار، كذلك يحملن أكبر عدد ممكن من الخواتم إن لم تكن من الفضة، فيمكن في حالة الضرورة أن تكون من الرصاص، بالإضافة إلى أساور من الزجاج أو المعدن، كما أن الفتيات الصغيرات يلبسن أيضاً خلاخل حول الأرجل».

وأهم ما جاء في النص السابق الصورة التفصيلية لوصف ثياب نساء القرية ونوعيتها وألوانها وأشكالها وطريقة التستر أثناء مرور الرجال الغرباء. ثم ينتقل أويتنج إلى ذكر أهم الأعمال المنزلية لنساء القرية كطحن الحبوب وخبز الخبز والطبخ والحياكة وما شابه ذلك.

وأخيراً وصف أويتنج في كتاباته بنوعية الملح المستخرج من كاف بأنه «حلو وليس مراً كالملح الذي يستخرج في تدمر «كما أشار أن سكان قريتي كاف وأثرة يتعاونون في استخراج الملح بانتظام، طوال السنة، ما يوحي أن هذه العملية كانت تُعَدُّ مهنة رئيسية لسكان القرية.

ثم ينفرد أويتنج دون غيره في وصف عملية استخراج الملح (شكل ٥) حول سطح جبال سمرا غطي وقليب الملح، التي تقع على مسافة ساعتين جنوب شرقي قرية كاف، فقال «حيث أقام شيخ كاف عند سفح الجبل برك ماء وقنوات تخزن فيها المياه السطحية المستخرجة من الآبار، والتي تتدفق باستمرار عبر القنوات ولتغمر الأرض المالحة وتغسلها لتتبخر في النهاية تاركة إرسابات الملح متجمعة على السطح»[2].

(١) ما تضعه المرأة على أنفها للزينة يسمى زماماً وحلقة.

(٢) أويتينج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ص٢٢- ٥٦.

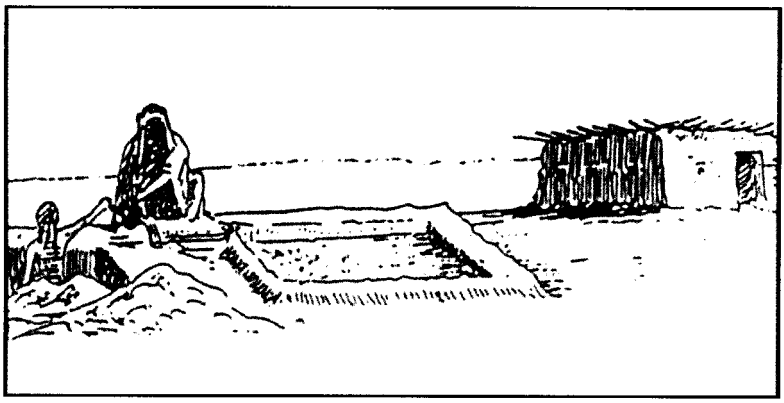

(شكل ٥) طريقة استخراج الملح بالقرب من كاف
نقلاً عن أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٥٥

وفي النص السابق توضيح لعملية استخراج الملح من السبخة الواسعة الواقعة شرق كاف، الذي يتم استخراجه بطريقة بدائية لا تكلف المرء سوى حفر برك وقنوات تخزن فيها المياه السطحية المستخرجة من الآبار، ثم تبقى معرضة للهواء أياماً قليلة، خاصة في وقت الصيف ومن ثم تتجمد تلك المياه ملحاً. وكانت عملية استخراج الملح تتم تحت إشراف أحد الزنوج، الذي كان يقضي اليوم كله في غرف الماء وسقي التربة المالحة، ثم جمع الملح الذي يترسب على السطح في شكل أكوام لتجف وتنظف قبل تخزينه في غرف طينية مسورة كانت تقام عند مدخل القرية(١).

وكان التعامل التجاري يتم عن طريق المقايضة، حيث ذكر أويتنج بأن بدو (وادي) السرحان، وبدو بني عيسى كانوا يأخذون ما بين ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ حمولة جمل من هذا الملح سنوياً لبيعها في حوران (ببلاد الشام) حيث كانوا يقايضون البضاعة بنفس مقدار الوزن الموازي لوزنها من الحبوب، وكان قياس الوزن يتم بمقياس خشبي يسمى صاعاً(٢)،

(١) أويتينج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص٥٦.

(٢) الصاع وحدة لقياس الحجم، اتخذها النبي (ﷺ) ليُكال بها الأطعمة المكيلة وخاصة الحبوب، وتستخدم في التشريع الإسلامي، مثل إخراج زكاة الزروع وبعض الكفارات وزكاة الفطر وغيرها، والصاع النبوي يعادل أربعة أمداد نبوية، وقال بعض العلماء الصاع سدس كيله مصرية أي قدح وثلث مصري وهو يساوى بالجرامات ٢١٧٦ وذلك حسب وزن القمح. وقال الإمام أحمد الصاع خمسة أرطال وثلث – برطل العراق، والصاع أربعة أمداد، والمد ما يملأ كفي الرجل المعتدل الكفين، انظر هنتس، فالتر، **المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري**، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، (١٩٧٠م)، ص٨٧.

وهو يزيد عند امتلائهما بين ١٣ إلى ١٤ رطلاً (حوالي ٦ كجم). وتوخياً للدقة في عدد الحمولة أثناء التحميل ولمنع أي اختلاط في ذلك أثناء العد وكان العدد الأخير من الحمولة يتم ترديده عشرين مرة أو أكثر بصوت عال، وبعد عدد عشرين صاعاً وهي نصف الحمولة، يبدأ الشخص في عمل كومة جديد[١].

كما ذكر أويتنج أن ضريبة جباية الملح فرضت على كاف أثناء الاحتلال العثماني المؤقت لوادي السرحان عام ١٨٧٠م، كان مقدارها ثابت لا يتعدى ريالا مجيدياً واحداً[٢] عن كل حمولة، يعطى نصفه لشيخ كاف والنصف الآخر يذهب إلى موظف الضرائب التركي[٣].

ثم نتابع أوصافاً أخرى لقرية كاف مع الرحالة الغربيين، فنذكر الرحالة هوبير، الذي زار كاف برفقة الرحالة أويتنج، وبدأ كتاباته عن القرية بذكر اسم ووصف شيخها حين زيارته لها، فقال «عبدالله الخميس شيخ كاف هو رجل في الخمسين من عمره (هو نفسه يجهل سنه الحقيقي) ذو بنية ضعيفة وعظام بارزة تثبت أصله البدوي». أما فيما يختص بتاريخ القرية فقال عنه « ذكر لي عبد الله أن والده دهيري الخميس كان أول من أقام فيها منذ حوالي خمسين سنة بينما كان هو نفسه لا يزال طفلاً صغيراً».

ثم انتقل هوبير إلى ذكر ينابيع كاف التي تعتمد عليها بعض البساتين في ري مزروعاتها، حيث ذكر أن كاف تحوي على ١٢ ينبوعاً صالحة للشرب ولسقي النخيل والأشجار (اللوحتان ٣ أ- ب)، فقال «وعيون الماء الصغيرة والعديدة المتوافرة في هذا المكان كانت تشكل في ذلك الوقت بحيرة في أسفل التل، وذلك يتفق مع ما قاله يوسف المالكي، وبالنسبة لعبد الله لم يعد يتذكر كيف أن العيون الإثنتا عشرة الموجودة هنا تحولت إلى أحواض صغيرة»[٤].

---

(١) البادي، **الرحالة الأوربيون في الجزيرة العربية منطقة الجوف ووادي السرحان**، ص ٢١٨.

(٢) الريال المجيدي عملة تركية، كانت متداولة في المنطقة العربية، وكان يساوي ٣٦ قرشاً مصرياً عام ١٨٧٣م، انظر Murray, John, **Hand Book,** Egypt, (1873).

(٣) أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص٥٦.

(٤) البادي، **الرحالة الأوربيون في الجزيرة العربية منطقة الجوف ووادي السرحان**، ص ٢١٦.

(لوحة ٣- أ) ينبوع ماء يقع جنوب الجامع ويأتي من قناة قريبة

(لوحة ٣- ب) إحدى العيون التي لا زالت جارية في قرية كاف

وبعد ذلك حدد هوبير في نصه درجة حرارة مياه الينابيع، فقال «عندما أخذت في الساعة الرابعة صباحاً درجة حرارة عشرة من هذه الأحواض المائية كانت درجة حرارتها أكثرمن ٢٤,٥ درجة مئوية في المتوسط للأحواض المعروضة للشمس، و٢١,١ للمتوسط لتكلك الأحواض التي تقع تحت النخيل، معنى ذلك أن متوسط الحرارة في المنطقة مرتفع جداً». ثم عمل مقارنة لدرجة حرارة كاف مع الجوف اعتماداً ما أكده له شيخ القرية، وما رآه هو من مؤشر في القرية، فقال «أكد لي الشيخ عبد الله أن درجة الحرارة في كاف هي أكثر ارتفاعاً خلال الصيف منها في الجوف، وانه نادراً ما يهطل المطر في الشتاء، وهناك مؤشراً آخر عن هذه الحرارة يعطينا إياه وجود أشجار النخيل التي تنمو جيداً هنا، ونجد كذلك أن الماء مالح قليلاً ولكنه مع ذلك صالح للشرب».

أما شكل قرية كاف فقد شبهه هوبير بالهلال، وذكر أن منازلها تنقسم لمجموعتين، تفصلها النخيل، فقال «تمتد القرية الهلالية الشكل من الشرق إلى الغرب وتتألف من مجموعتين، واحدة من ثمانية منازل والأخرى من تسعة، تفصلهما الينابيع والـ ٤٥٠نخلة».

وأتفق هوبير مع أويتنج في إحصاء عدد سكان كاف بـ ٩٠ شخصاً، وتحدث بعدها في اقتضاب عن تربية الحيوانات التي زاولها السكان، وشجعهم على ذلك الظروف الطبيعية التي تتمتع بها القرية، فقد كانوا السكان يعتنون بتربية الماشية كالإبل والغنم التي أشار إلى وجودها هوبير، فقال «يملكون ثلاثين جملاً وما يوازيها من الماعز وخمسة عشر خروفاً بالإضافة إلى بضع دجاجات».

ثم أشار هوبير إلى وجود منجم ملح في جنوب كاف يملكه شيخها ويبيع إنتاجه في بلاد الشام والعراق، وكان ينتج ملحاً ناصع البياض، واعتمد على تذوقه ووصفه بأنه شديد المرارة، فيملكون ثلاثين جملاً وما يوازيها من الماعز وخمسة عشر خروفاً بالإضافة إلى بضع دجاجات. وليس لديهم ثيران أوخيول. إن وجود هذه الواحة الصغيرة مدين لوجود الينابيع أولاً ومن ثم لوجود منجم ملح يعود دخله إلى الشيخ نفسه، ويأتي هذا النتاج من جبل

صغير يبعد ٥كم إلى جنوب كاف وتحمله الإبل إلى مقربة من القرية في تجاويف تحوي ما بين ٠,٤٠م إلى ٠,٥٠م من الماء يذوب الملح فيها ثم يتبلور بالتبخر. إنه شديد البياض لكن طعمه شديد المرارة. يباع لقبائل الصحراء وتنقله جمال الشيخ بالتهريب إلى البصرة (بصرى) وحوران وجبل الدروز».

كما ذكر هوبير عن منازل القرية بأنها نظيفة من الخارج ولكنها وسخة من الداخل، ووصف سكانها بأنهم لا يعرفون القراءة أو الكتابة[١].

كما ذكر هوبير في معرض حديثه عن اللهجات - حيث يذكر أنه كان من المهتمين باللغات القديمة ولهجاتها، وبالدراسات الشرقية - أن لغة كاف تختلف اختلافاً كبيراً عن العربية العامية في سوريا فالأصوات الحلقية تشكل مقياساً أكيداً للهجة البدوية فحرف (ي) يصبح بديلاً للحرف (ج) وحرف (ك) يصبح (تش) بصورة مستديمة، وبمثل هذا النطق يمكن اذاً لل (ك) وال (ق) أن لا يختلفان أبدا أن الحرف (ج) غير سعيد الحظ فقد عانى مثل الحروف الأخرى شتى أنواع التنوع فهنا نجده ينطق بأربعة أوجه ولقد سمعت على سبيل المثال كلمة جبل تنطق:

كالمعتاد.. جبل.. يبل.. العربي المكتوب جبل ثلاث نقاط على أل (ج) تشبه النطق الدمشقي ب تش خفيفة كالفرنسية لحرف (j) والتي تشكل حركة صوتية مزدوجة أو (au) والتي تسمع وكأنها (جو) كما هو موجود في كلمات مثل جوع، الجوف، جوهر، علاوة على ذلك فان أنماط التخاطب الأكثر استخداماً تختلف تماماً عن تلك التي تستخدم في المدن السورية مثلاً ما هذا؟ تنطق وشو وكذلك شنو وكيف ذلك؟ اشلونو؟ (أي شيء لونه)، (غداً) باتشر أوباكر وبعد غد (عقب باكر) أمس، والبعيد (العام) والحاضر (ها لسنة) في هذه البلاد، بها الديره، حسن (زين) لا شيء، لا يؤثر تقال ما يخالف وكلمة المجاملة المعتادة (ما ادري والله) وأيضا كلمة الشكر هي الله يسلم[٢].

(١) البادي، **الرحالة الأوربيون في الجزيرة العربية منطقة الجوف ووادي السرحان**، ص ص ١٥١-٢١٧.

(٢) البادي، **الرحالة الأوربيون في الجزيرة العربية منطقة الجوف ووادي السرحان**، ص ١٧١.

ثانياً: وصف المنازل ومخططاتها في كتابات الرحالة:

تزخر قرية كاف بالعديد من المنازل الأثرية، ومن تلك المنازل ما اندثرت عمارتها، ومنها مازال باقياً، ولذا كانت كتابات الرحالة النافذة الوحيدة لرؤية ما اندثرمن تلك المنازل، نظراً لكونها كانت قائمة وقت أن شاهدوها، وبفضل كتاباتهم يمكن تصور عمارتها وملاحقها بل وعناصرها الفنية أيضاً. وقد حددت آن بلنت مخطط منازل قرية كاف بأنها مربعة الشكل، فقالت «بأنها قرية صغيرة وجميلة فيها ستة عشر بيتاً مربعاً»(١).

أما أويتنج فقد، وصف منزل الشيخ عبد الله الخميس بالضخامة (الشكل ٦)، وذكر أنه يحتوي على عدة غرف، أهمها الديوان (القهوة) الذي يقع مستقلاً في مقدمة منزل الشيخ وفيه قدم واجب الضيافة لأفراد القافلة في شكل مجموعات، فقال «وهوعبارة عن مجلس طوله اثنتا عشرة خطوة وعرضه أربع خطوات يدخل إليه الضوء من فتحات في أعلى الجدار ومن الباب»(٢).

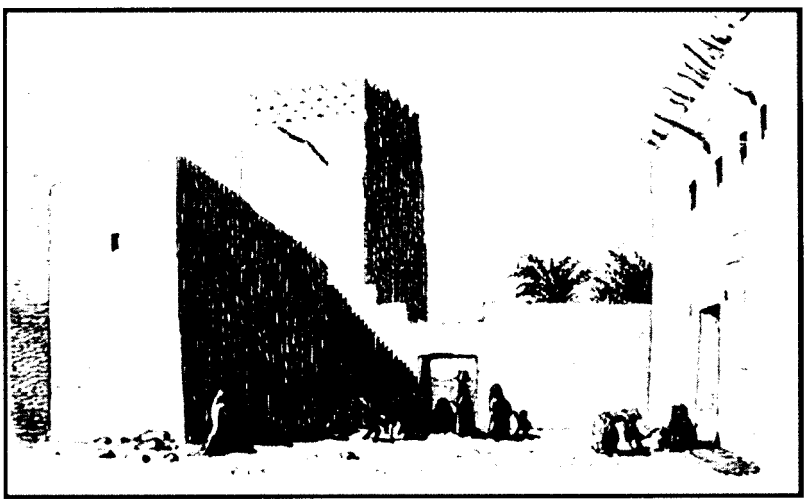

(شكل ٦) فناء منزل الشيخ عبد الله في كاف
نقلاً عن أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٣٢

(١) بلنت، **رحلة إلى بلاد نجد**، ص ١٣.

(٢) أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٢٢.

بينما حدد هوبير أن منازل قرية كاف مكونة من ١٧منزلاً (وهو مقارب للعدد الذي ذكرته آن بلنت)، مقسمة في مجموعتين: مجموعة تضم ثمانية بيوت، ومجموعة تتكون من تسعة بيوت، وتفصل بينهما فسحة من الأرض بها الينابيع وأشجار النخيل، وتميزت تلك المنازل بالنظافة(١).

العناصر المعمارية المكونة لعمارة منازل كاف:

على ضوء ما ورد في النصوص التي أشرنا إليها سابقاً، اتضح لنا أن المنزل في قرية كاف، يشتمل على مجموعة من العناصر المعمارية والمتمثلة في التالي:

التخطيط الرئيسي:

وجدت عناصر معمارية في التخطيط لابد من وجودها مثل عنصر الحركة والاتصال (المداخل والممرات) وغرف الاستقبال (القهوة) (لوحة ٤) وحجرات المعيشة والمنافع والأفنية الداخلية المتعددة (لوحة ٥) حسبما ذكر أويتينج «ويترك المرء بين البيوت بعض الأحواش ذات الأحجام المختلفة وغرف الفضلات»(٢). بالإضافة إلى اعتبارات ومؤثرات أخرى تتحكم في تخطيط المنزل في قرية كاف من أهمها تأثير العوامل الدينية والاجتماعية والأمنية ومادة البناء المستخدمة.

(١) البادي، **الرحالة الأوربيون في الجزيرة العربية منطقة الجوف ووادي السرحان**، ص ١٥١.

(٢) أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٥٢.

(لوحة ٤) غرفة الاستقبال أو (القهوة)

(لوحة ٥) الفناء الأوسط الذي تفتح عليه الغرف الداخلية

العناصر الدفاعية:

لقد انعكست الناحية الأمنية على تخطيط المنزل، فكانت بعض المنازل أبراجها المسننة توحي وكأنها قلعة بارتفاعها وسماكة جدرانها (لوحة ٦)، وقد ذكرت ذلك الرحالة آن بلنت بقولها «والأبراج الصغيرة ذات المشارف، والأسوار بمشارفها، بارتفاعها البالغ ٧ أقدام»[١].

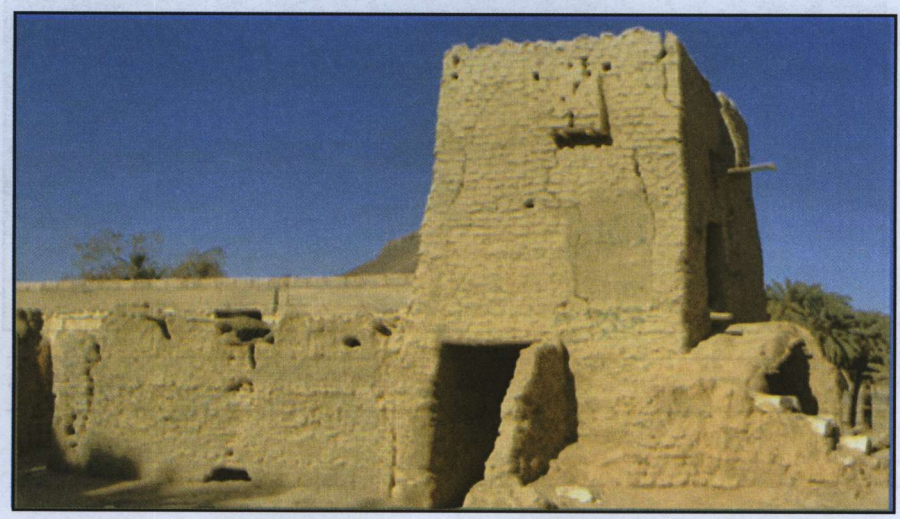

(لوحة ٦) إحدى أبراج المنازل المسننة

الواجهات الداخلية والخارجية:

تتميز الواجهات الخارجية لمنازل كاف بالبساطة، وقد غُطي بعضٌ منها بمادة الجص، وقُللت فتحاتها الخارجية وتميزت بالارتفاع[٢]، كما أن المنازل متراصة ومتجاورة

(١) بلنت، **رحلة إلى بلاد نجد**، ص ١٣.

(٢) الفتحات والنوافذ ما هي إلا معالجة مناخية شكلتها الظروف الدينية والاجتماعية للمساهمة في التغلب على الظروف المناخية، فمن المعروف أن الدين الإسلامي يوصي باحترام خصوصية المنزل وبعدم الإشراف وكشف منازل الغير، انظر مصطفى، فريال، **البيت العربي في العراق في العصر الإسلامي**، المؤسسة العامة للآثار والتراث، بغداد، (١٩٨٣م)، ص ١٢٤.

(لوحة ٧). وقد توج المعمار أعلى بعض الواجهات بشرفات مسننة بنيت من الطين، بغرض تزيينها وحمايتها من الأمطار.

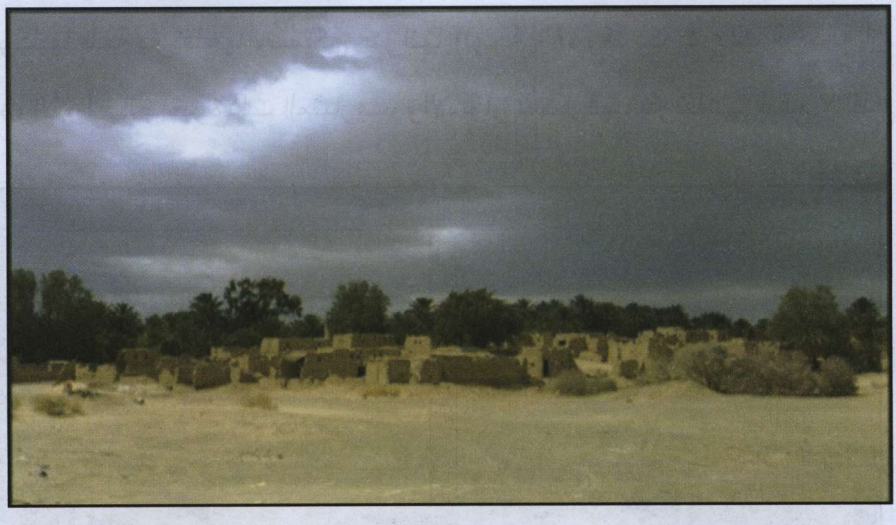

(لوحة ٧) صورة توضح مدى الترابط والتجاور بين منازل كاف

وقد أمدنا أويتنج بأسماء بعض المصطلحات المحلية لتلك الشرفات، فقال الشرفات المسننة تعرف باسم «حمام»، أما تسنينات الأسوار المرصوفة المتدرجة فيطلق عليها اسم «شمروخ»[١]، وقد شاع استخدام هذه الطريقة على نطاق واسع في المنطقة، وهي استمرار لما كان منتشراً في العمائر منذ عصور قديمة[٢].

أما الواجهات الداخلية، فقد وجهت الفتحات والنوافذ باتجاه الفناء الأوسط، الذي تفتح عليه جميع الغرف، وقد شاهدت آن بلنت فلو عمره سنتان ربط في وسط فناء الشيخ[٣]. وفي ذلك مؤشر على تعدد وظائف فناء المنازل.

(١) البادي، **الرحالة الأوربيون في الجزيرة العربية منطقة الجوف ووادي السرحان** ٢١٠.

(٢) الشرفات معروفة منذ ما قبل الإسلام عند الأشوريين والفرس والرومان، واستخدمت بشكل واسع في العصر الإسلامي، ومن أقدم أمثلتها قصر الحير الشرقي في العصر الأموي، انظر شافعي، فريد، **العمارة العربية من مصر الإسلامية**، عصر الولاة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، (١٩٧٠م)، ص ٢١٤.

(٣) بلنت، **رحلة إلى بلاد نجد**، ص ١٤.

المداخل والأبواب :

أشار أويتنج إلى مدى حرص سكان كاف على أن يكون لكل أسرة مدخل خاص بها، يكون مغلقاً بصفة دائمة، وتحت كامل تصرفها[١]، وكانت تغلق تلك المداخل بأبواب خشبية تم صنعها محلياً من أشجار الأثل، وذلك حسب قول هوبير «الأثل يستخدم خشبها في صنع عارضات خشبية لصناعة الأبواب وأسقف المنازل»[٢].

الفتحات والنوافذ :

فتحت النوافذ الصغيرة والمربعة الشكل في أعالي جدران الغرف لغرض التهوية والإضاءة (لوحة ٨)، واتضح ذلك من قول آن بلنت «بلا شبابيك أوفتحات من أي نوع، باستثناء ثقوب مربعة قليلة، قريبة من السقف»[٣]. وقول أويتنج «يدخل إليه الضوء من فتحات في أعلى الجدار ومن الباب»[٤].

ومن النصين السابقين يتضح لنا أن الحل المناسب لتلك النوافذ والفتحات هو ارتفاعها وصغر حجمها واتجاهها نحو الداخل وبالتحديد انطلاقاً من الفناء الأوسط أو الأفنية الأخرى لتستمد منها الإضاءة والتهوية، ولأهمية هذه الفتحات فأنها دائماً تكون مفتوحة، وليس هناك ما يغلقها عدا فصل الشتاء، تغلق مؤقتاً بمادة الطين وبسمك قليل لمنع دخول الهواء البارد.

---

(١) أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٥٢.

(٢) البادي، **الرحالة الأوربيون في الجزيرة العربية منطقة الجوف ووادي السرحان**، ص ٢١١.

(٣) بلنت، **رحلة إلى بلاد نجد**، ص١٤.

(٤) أويتينج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٢٢.

(لوحة ٨) ارتفاع الفتحات

الأسقف :

استناداً إلى ما قالته الرحالة الإنجليزية آن بلنت «وكان السقف من عمدان من الأثل، بقواطع من النخل تملأ ما بينها فروع النخ»(١).

وأيضاً لما أضافه أويتنج من قول «أما بالنسبة إلى الغرف وحجرات الاستقبال على وجه الخصوص (وما يطلق عليها اسم القهوة) فهي مرتفعة جداً وتصل من ٤- ٦ أمتار. وهي مسقوفة بخشب الأثل وفوقها سعف النخيل المغطى بالطين والجير»(٢).

نستطيع أن نقول إن أسقف مباني كاف، كانت في الغالب مرتفعة ومستوية، وتتكون من جذوع شجر الأثل وسعف النخيل تصف بجانب بعضها البعض بحيث تشكل طبقة واسعة ثم يوضع سعف النخيل فوقها وباتجاه عرضي وفوق هذا كله يوضع الطين المخلوط بالجير، وقد دلتنا كتب التاريخ أن النبي (ﷺ) بنى مسجده من الطين ورفعه بواسطة سواري من جذوع النخل لحمل السقف المكون من سعف وخشب النخيل والطين(٣).

(١) بلنت، **رحلة إلى بلاد نجد**، ص ١٤ ،

(٢) أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٥٢.

(٣) ابن سعد، أبو عبد الله بن سعد، **الطبقات الكبرى**، دار صادر بيروت، بيروت، (د.ت) ج١، ص ٢٤٠.

وسائل تصريف المياه:

ذكر أويتنج أنه استخدمت المزاريب لتصريف مياه الأمطار من على أسطح المباني، وكانت تصنع من خشب الأثل والنخيل أو الحديد[١].

الملاحق:

أشار أويتنج عن وجود وحدات معمارية متعددة ضمن تخطيط المنزل تحيط بالفناء الداخلي الكبير، وتقوم بدور مهم كالمطابخ والمخازن وغيرها[٢].

عناصر الأثاث:

الوجار:

وهو مكان معد لاشتعال النار بغرض التدفئة وعمل القهوة والشاي للضيوف، وقد استهوى آن بلنت شكل الوجار والناس من حوله أثناء إعداد القهوة قائلة «وتسمى الغرفة الرئيسية (القهوة) أوغرفة القهوة، وفيها يوجد موقد (وجار) مربع في الجانب أو من الوسط لصنع القهوة. ولا توجد مدخنة، ويخرج الدخان كما يستطيع، ولكن هذا ليس مريح كما قد يتبادر إلى الذهن، لأن احتراق الحطب هنا له لهب جميل، ويعطي أقصى حرارة بأدنى قدر من الدخان. إنه (الروثة) أو(الغضا)- نوع من الأثل- ويجلس الناس حول الموقد، بينما يجري صنع القهوة إجراء صامتاً، يستغرق نصف ساعة تقريباً»[٣]. كما وصف أويتنج الوجار بأنه عبارة عن حفرة في ركن الغرفة على ارتفاع ١،٥ قدم، معدة لإشعال النار باستخدام الحطب أو الفحم من أجل التدفئة وإعداد القهوة.

---

(١) أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٥٢.

(٢) أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٥٢.

(٣) بلنت، **رحلة إلى بلاد نجد**، ص ١٤.

الأوتاد:

لم يغفل أويتنج عن ذكر الوتد أثناء استعراضه لأثاث غرفة القهوة بقوله «وقد كان الأثاث مكوناً من مدفأة (وجار) ومنفاخ وهاون (نجر) وبعض الأوتاد المعلقة على الجدران»[1].

وللوتد أهمية حيث قد لا تخلو من وجوده أي غرفة من غرف منازل كاف، وهو عبارة عن وتد خشب مثبت في عرض الجدار، مصنوع من خشب الأثل يستخدم لتعليق الأسلحة والملابس والمشالح وغيرها.

ثالثاً: وصف العمارة الدفاعية في كتابات الرحالة:

حظيت القلاع بنصيب كبير في كتابات الرحالة، وكانت محدودة في كاف، وسبب اهتمامهم بها أن هذه المباني تمثل معلماً من معالم القرية التي تسترعي انتباههم، أحياناً من بعيد، أو لتصميمها الهندسي وطابعها المعماري، أو لأهميتها الأثرية، أو لكونها مقرا للحكم.

كتابات الرحالة في وصف قلعة الصعيدي:

هي قلعة متهدمة جزئياً، حفلت عمارتها من الخارج بالتحصينات والأبراج والبوابات المنيعة، فيما اشتملت منشآتها الداخلية على غرف وبرك وقنوات وغيرها، وشيد بناء القلعة فوق قمة جبل مما زاد في صلابتها ومنعتها، ويمكن الوصول إلى القلعة عبر طريق وعر طوله نحو ١٢٠٠م من قاعدة الجبل حتى بوابة القلعة (لوحة ٩- أ).

(١) أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٢٢.

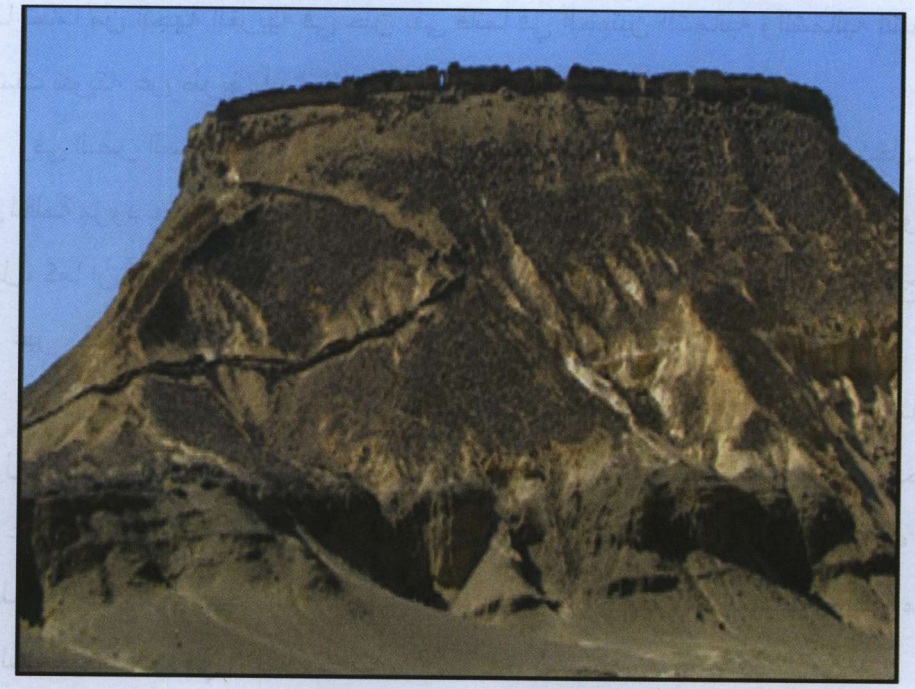

(لوحة ٩- أ) صورة تبين جبل الصعيدي وفوقه القلعة

وقد ساهمت كتابات الرحالة الغربيين في وصف هذا الصرح المنيع، ومن أهم تلك الكتابات ما ذكره الرحالة أويتنج في تحديد موقع القلعة في الجهة الشمالية الغربية من قرية كاف، وكذلك تحديد قدر ارتفاعها بنحو ٣٠٠مترٍ.

ولم تقف كتابات أويتنج عند ذكر موقع قلعة الصعيدي، وتحديد ارتفاعها فقط، ولكن حرص أيضاً على مرافقة شيخ القرية في السير إلى أعلى الجبل ورؤية أهم آثار القلعة في ذلك الوقت، وتدوين ما شاهده عنها.

ويُعَدُّ نصه من أقدم وأهم النصوص التي وصلتنا عن قلعة الصعيدي، إذ تضمن وصف لمادة بناء القلعة ومكوناتها المعمارية، وأسوارها، وغيرها الكثير، فقال أويتنج « ثم عبرنا من خلال بوابة نحو بضع درجات حجرية إلى أعلى مروراً ببعض حجرات الحراسة القديمة على اليمين واليسار حتى وصلنا إلى القمة المسطحة للجبل، حيث وجدنا السور

ساقطاً تماماً من الجهة الغربية في حين بقى قائماً في الجهتين الشمالية والشمالية الشرقية، وقد تمت تقويته عن طريق أبراج مربعة وبارزة إلى الأمام»[١].

وفي النص السابق أمدنا أويتنج بأكثر من معلومة مهمة، منها أنه حصر لنا مدخل واحد يؤدي للقلعة مزود ببضع درجات. واحتواء القلعة على حجرات للحراسة تقع على يمين ويسار المدخل، كما أن النص لا يخلو من الفائدة إذ إن عمارة أسوار القلعة أثناء مشاهدة أويتنج لها، كانت غير سليمة ومعظم أجزائها متهدمة، وهو الذي استقرأناه من النص السابق.

أما عن عمارة القلعة الداخلية وما تضمه من منشآت مختلفة، فيقول أويتنج «أما بقايا المنازل فليست ذات أهمية ففي النصف الشمالي الغربي يوجد أكبر تلك المساكن ويحتوي على عدة غرف وبجانبه بركة[٢] مسطحة، وإلى الجنوب الشرقي يوجد بئر مردوم، وفي الوسط يقع المسجد ذوالمحراب النصف دائري، وحيث إن محراب المسجد لم يكن متجهاً نحو القبلة فربما كان في الأصل كنيسة»[٣].

في النص السابق واصل أويتنج وصفه لبقية أجزاء القلعة الداخلية، المتمثلة في المنازل وذكرها بأنها ليست ذات أهمية، والبركة المسطحة، والبئر المهجور، والمسجد الواقع في وسط القلعة، واعتبره وجهة نظره أنه كان في الأصل كنيسة بسبب انحراف محرابه، ولكنها وجهة نظر غير صحيحة، لأن انحراف المحراب ربما يعود لعدم الدقة في معرفة اتجاه القبلة، كما أن ما عثر عليه في هذه القلعة من فخار نبطي يرجح أن هذا البناء (القلعة) الذي يصل طوله ١١متراً، وعرضه ٦ أمتار كان في الأصل معبداً نبطياً أعيد استخدامه فى الفترة الإسلامية[٤].

---

(١) أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية، ص** ص٣٤- ٣٥.

(٢) البركة مستنقع ماء أو حوض ماء، انظر أبو حسن، كراع النمل، **المنجد في اللغة**، عالم الكتب، القاهرة، (١٩٨٨م)، ص ٣٥.

(٣) أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٣٦.

(٤) المعيقل، خليل، **الآثار النبطية في منطقة الجوف**، الرياض، د. ن، (١٤١٧هـ)، ص ٦٠.

وأخيراً يذكر أويتنج في نصه أنه لم يجد أية معثورات أثرية في القلعة تساعده في تحديد تاريخها[1] قائلاً «...ما عدا حجراً وجدته في البئر منقوشاً عليه صورة الهلال والشمس»[2].

ومن الرحالة من جمع في وصفه للقلعة بين الحديث عن مناعة تحصينها الخارجي وأسوارها، وبين ما تشتمل عليه من أبنية داخلية، كما جاء في وصف الرحالة هوبير في وصف القلعة، ومن الجدير بالذكر أن الرحالة هوبير قد صعد بنفسه إلى القلعة، وبهرته مناعتها وطريقة بنائها، فقال «سأكون أول أوربي تسلق الصخرة التي يقوم عليها قصر السيد (الصعيدي). إنها صخرة وحيدة، وثمة صخرتان أخريان أصغر حجماً موجودتان حول كاف، قدرت ارتفاعهما بقرابة ٨٠ متراً فوق السهل. أما قمتها فعلى شكل مائدة مستديرة ويبلغ محيطها ٣٠٠٠م. وهي مكونة كلياً من كتل بركانية صخمة سوداء صلبة جداً غارقة في غلاف ترابي تتداخل فيها بضع طبقات من الجير الجميل الشديد الصلابة والبياض، وكنت قد صادفته على الطريق بين الأزرق وكاف.

تتألف الأطلال التي تتوج الهضبة العليا من حائط بارتفاع ٣ إلى ٤ أمتار وبسماكة تتراوح ما بين نصف متر ومتر واحد يحاذي حدود القمة الشرقية للصخرة. أما الجوانب الثلاثة الأخرى فليس لديها جدران ومن المرجح أنها كانت عمودية. الطريق المؤدية إلى الهضبة والمقوّضة كلياً تقع أيضاً في الجهة الشرقية (لوحة ٩- ب) وتبدأ من مقبرة كاف الواقعة عند قاعدة الهضبة. باب حائط الدفاع هذا كان مقفلاً بمصراعيه من الحجر الأسود

(١) تم العثور في داخل القلعة على كسر فخارية تؤرخ بمنتصف الألف الأول قبل الميلاد، انظر، المعيقل، **الآثار النبطية في منطقة الجوف**، ص ٦٠.

(٢) أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٣٦.

(لوحة ٩- ج) شبيه بتلك الأبواب التي تصادفها بكثرة في أطلال المدن في جبل الدروز وحوران والتي رأيتها دارجة الاستعمال في بعض الحدائق في تدمر. كان أحد المصراعين على الأرض تحت المدخل. على الهضبة كذلك غرفتان صغيرتان دون سقف تستندان إلى حائط السور، وإلى الشمال تبدو جدران مبنى صغير يضم أيضاً غرفتين. باتجاه باب حائط السور، حوض مدوّر مسوّر قطره (٤أمتار) وعمقه متر واحد، وعلى مسافة قريبة يبدو في الأرض تجويف طبيعي على شكل مغارة، ولا بد أن يكون هذان التجويفان قد استعملا كحوضين للماء. بين الحوضين حجر حممي ضخم، متعرج الشكل، بقياس متر مكعب تقريباً حفرت عليه بعض العلامات الشبيهة بتلك التي لا يزال البدو يستخدمونها حتى يومنا هذا لدمغ إبلهم ويسمونها (وسم) أي علامة.

(لوحة ٩- ب) جانب من السور والطريق المؤدي إلى القلعة

(لوحة ٩- ج) بوابة القلعة

وبما أن الصخرة خالية من أي آثار بنيان أخرى، اعتقد بأن ما كان قائما هنا لم يكن سوى مركز حصين محصن في موقع طبيعي ومن الممكن إعادته حصناً منيعاً»[١].

ولا يفوتنا أن نشير إلى الدقة المتناهية في وصف الرحالة هوبير لسماكة وارتفاع الأسوار التي امتدت جدرانها بمحاذاة حدود القمة الشرقية للصخرة.

ومن الملاحظ أن نص هوبير قد ركز على المكونات المعمارية الداخلية للقلعة، كما حمل بين سطوره مقارنات معمارية بين عمارة القلعة وبين عمائر بلاد الشام، ومن أمثلة ذلك ما ذكره حول تشبيه باب حائط الدفاع الذي كان مقفلاً بمصراعيه من الحجر الأسود بأبواب أطلال المدن في جبل الدروز وحوران وأيضاً الموجودة في بعض الحدائق في تدمر.

(١) البادي، **الرحالة الأوربيون في الجزيرة العربية منطقة الجوف ووادي السرحان**، ص ص ١٦٢ – ١٦٧.

وأخيراً يصف نص هوبير ما آلت إليه القلعة من الانهيار، ويخبرنا أنه من الممكن إعادة بنائها واستخدامها من جديد.

وبهذه النصوص نكون قد عرضنا بالوصف للقلعة الوحيدة في قرية كاف من خلال تتبع كتابات الرحالة والتي أكملت كل منها الأخرى.

رابعاً : ذكرمواد البناء في كتابات الرحالة:

يعتبر الطين المادة الأساسية في بناء منازل قرية كاف لوفرة تلك المواد وسهولة الحصول عليها، وقد تحكم استخدام مادة الطين في عدم ارتفاع منازل القرية لأكثرمن طابق (شكل ٧)، على الرغم من زيادة سماكة الجدران، وهذا على حد قول أويتنج» ومعظمها من دور واحد، وسمك الحوائط يتراوح ما بين قدمين وثلاث أقدام»[1].

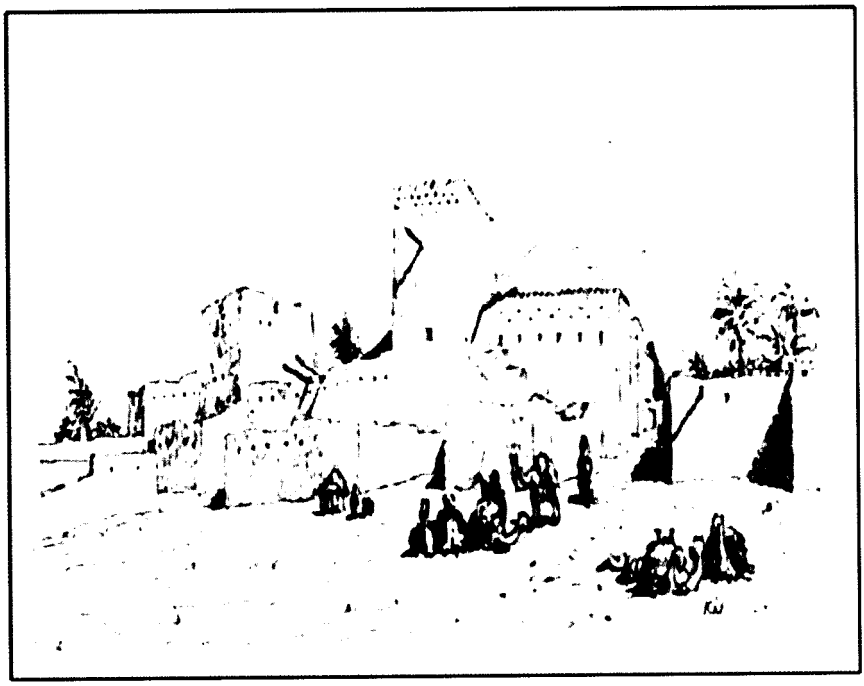

(شكل ٧) معظم منازل كاف من طابق واحد
نقلاً عن أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٢٢

(١) أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ص ٥٢.

وبما أن الطين هو المادة الأساسية في بناء عمائر قرية كاف لوفرته وسهولة الحصول عليه، إلا أنه في الواقع لم يكن مادة جديدة، بل استخدم منذ أزمنة بعيدة، فمنذ ما قبل الميلاد بعشرة ألاف سنة عرفت هذه المادة، حيث بنيت مادة أريحا بالطين. وفي القرن السابع قبل الميلاد بنى برج بابل من الطين بارتفاع يبلغ أربعين متراً. كذلك انتشر استعمال الطين في البناء في حضارات ما بين النهرين ومصر الفرعونية والرومانية والهندوسية وحضارة الهنود وغيرهم(١).

كما استخدم الطين منذ فجر الإسلام في مسجد النبي (ﷺ)، واستمر البناء به على مر العصور لوفرته ولملائمته للظروف البيئية(٢).

وإلى جانب الطين أشار أويتنج إلى مواد بناء أخرى استخدمت في بناء قلعة الصعيدي والتي تشتمل على الأحجار الرملية والجص(٣)، فقال: «قطعاً حجرية رملية سوداء والحجر الرملي الأبيض والجص الذي يستخدم كمونة»(٤).

ويتضحمن النص السابق أن الأحجار الرملية هي المادة الأساسية التي بنيت بها قلعة الصعيدي، وذلك لوفرتها والقدرة على جلبها، وأن الجص هو مادة المونة المستخدمة، وقد عُرف الجص في بلاد فارس، ثم في مصر في عصر ما قبل الأسرات واستخدمه الإغريق والرومان في تغطية وزخرفة الجدران(٥).

---

(١) سلقين، محي الدين خطيب، **العمارة البينية والتراث**، المطبعة السورية، حلب، (د.ت)، ص ٤٢.

(٢) بهنسي، عفيف، **العمارة عبر التاريخ**، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، د.م، (١٩٨٧م) ط١، ص ٥٢.

(٣) الجص كلمة معربة من الفارسية كج، والقص لغة يقصد بها الجص، استخدمها العرب وقالوا قصص وجصص، انظر ابن منظور، **لسان العرب**، ج٧، دار صادر بيروت، بيروت، (د.ت)، ط٣، ص ١٠.

(٤) البادي، **الرحالة الأوربيون في الجزيرة العربية منطقة الجوف و وادي السرحان**، ص ١٨٨ – ١٨٩.

(٥) عبد الحميد، سعد زغلول، **العمارة والفنون في دولة الإسلام**، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ت)، ص ٢٢٣-٢٢٤.

وفي العصر الإسلامي استخدم الجص في تغطية جدران وأعمدة مسجد النبي (ﷺ)، واستمر استخدامه على مر العصور وفي جميع المباني[1]، ولعل السبب في ذلك توفره من جهة وحفظه لدرجة الحرارة في النهار من جهة أخرى، حيث إن أهم خاصية يتمتع بها الجص قدرته الفعالة على امتصاص كميات كبيرة من الرطوبة، فعند تعرضه للحرارة في الجو الجاف فأنه يفقد الرطوبة المخزونة والناتج عن تلك العملية انخفاض درجة حرارة أسطح الجص والهواء الملامس لها.

(١) الريحاوي، عبد القادر، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، (١٩٧٩م)، ص ٣٩.

الخاتمة والتوصيات:

وبعد أن استعرضنا كتابات الرحالة ومساهماتها في كافة مجالات الدراسات الأثرية، نستطيع أن نؤكد إنه بالرغم من تعدد أهداف الرحالة الغربيين،إلا أنهم نقلوا لنا كثيراً من الإرث الذي لن يصل إلينا لولا قيامهم بتلك الرحلات، فقد كانت كتاباتهم نافذة ننظر من خلالها إلى آثار قرية كاف وغيرها من المناطق الأخرى التي قاموا بزيارتها، وقد نجد أن نصاً واحداً لأحد الرحالة قد يجمع في وصفه أكثرمن أثر، بل وأكثر من موقع ومدينة.

وسبق وأن أشرت إلى اعتبار هؤلاء الرحالة فريقاً من الباحثين زار قرية كاف في أوقات متعاقبة ومتقاربة، فمنهم: من ساهم بتسجيله لأعمال الإنشاء، ومنهم من تجول بالطرقات وجلس مع العامة، وذكر عاداتهم ونوعية أكلهم وزيهم، ومنهم من بهرته عمارة قلعة كاف فراح يقارن بينها وبين ما في بلاد الشام، وبعضهم يكشف عن نشاط العامة، والكثيرمما كشفت عنه تلك الكتابات.

وأخيراً واقتناعاً بأهمية كتب الرحالة الغربيين كمصدر للدراسات التاريخية والآثارية، نوصي بالتالي:

- جمع الصور التي التقطها أو رسمها الرحالة الذين قاموا برحلات إلى شبه الجزيرة العربية، وإخراجها على هيئة كتب.
- القيام بدراسات مماثلة لهذه الدراسة عن بقية المدن والقرى الأثرية في المملكة العربية السعودية، التي حظيت بزيارات مشابهة من قبل الرحالة.